شرح

كتاب التوحيد

الذي هو حق الله على العبيد

لشيخ الإسلام والمسلمين مجدد الدين

محمد بن عبد الوهاب التميمي المشرفي

- رحمه الله تعالى-

لفضيلة الشيخ

خالد بن عبد الله المصلح

الدرس الثلاثون

www.almosleh.com

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

[المتن]

باب: لا يُستَشفَع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قال: جاء أعرابي إلى النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقال: يا رسول الله: نُهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك وبك على الله. فقال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «سبحان الله! سبحان الله!». فما زال يسبح حتى عُرِفَ ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يُستَشفَع بالله على أحد من خلقه» وذكر الحديث. رواه أبو داود.

[الشرح]

قال المؤلف رحمه الله: **(باب لا يُستَشفَع بالله على خلقه).**

(لا يُستَشفَع) هـٰذا نفي أو نهي؟ لا يُستَشفَع أي لا تُطلب الشفاعة، والشفاعة: هي التوسط في طلب الخير للغير، فقوله: لا يُستَشفَع بالله أي لا تُطلب الشفاعة بالله عند أحد من خلقه، فلا تُطلب الوساطة من الله عند أحد من الخلق، يعني: لا يجوز للمؤمن أن يقول: يا ربي اشفع لي عند فلان حتى ينهي معاملتي أو يحصل مقصودي، فإن الله –جلّ وعلا– أعظم من أن يُطْلَب منه أن يشفع عند خلقه، ولذلك عَظَّم النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قول القائل، وسبّح حتى عُرف ذلك في وجهه، فمعنى قوله: **(لا يُستَشفَع بالله على خلقه)** أي: لا تطلب الشفاعة من الله عند أحد من الخلق أو لأحد من الخلق، فقوله: **(على)** له وجهان: إما بمعنى (عند)، وإما بمعنى (إلى)، وكلاهما وارد في لسان العرب، أي له من الشواهد ما يدل عليه، فيصح أن تأتي على بمعنى عند، وتأتي على بمعنى إلى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾(١).

﴿عَلَيَّ﴾: قيل في التفسير أي: عندي، وأما (إلى) فمنه قول الشاعر:

إذا ما أتيت على الرسولِ

أي: إذا ما أتيت إلى الرسول، وذكر أصحاب حروف المعاني شواهد كثيرة متعددة لهذين المعنيين.

---

(١) سورة: الشعراء، الآية (١٤).

المراد أن قوله: (لا يُستَشفَع بالله على خلقه) أي: لا تُطلب شفاعته إلى الخلق، أو لا تطلب شفاعته عند الخلق، فعلى بمعنى (إلى) أو بمعنى (عند).

يقول رحمه الله: (على خلقه) وهٰذا يشمل جميع الخلق شريفهم ووضيعهم، ويشمل الإنس والجن والملائكة، فكل من سوى الله لا يُستَشفَع بالله عليه: لا يُستشفَع بالله عنده، لا يُستَشفَع بالله إليه، فإن شأن الله أعظم من ذلك.

قال رحمه الله: (عن جبير بن مطعم -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: جاء أعرابي إلى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-). وهٰذا كالاعتذار عما جرى، وأنه لم يحصل ما في الحديث من أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذين تلقوا عنه تعظيم الله -جل وعلا-، وكان معهم من المعرفة بالله ما يصونهم عن أن يقولوا مثل هٰذا القول.

(جاء أعرابي إلى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال: يا رسول الله نُهِكَت الأنفس) أي: أصابها الإنهاك، وهو الإجهاد والضعف.

مناسبة الباب ما أشرنا إليه، مناسبة الباب لكتاب التوحيد: نظير ما تقدم، أن هٰذا لا يكون إلا من ضعف التعظيم، وجميع الأبواب المتأخرة -كما تلاحظون- كلها في هٰذا الشأن وهو بيان ضعف التعظيم، وأن ضعف التعظيم من ضعف التوحيد، ولذلك يا إخوان الاعتناء بمسألة تعظيم الله -عز وجل- مما يحقق به العبد التّوحيد، وله فوائد كثيرة من أهمها تحقيق التّوحيد؛ لأنّ من عظم الله نفى عن قلبه وجلا قلبه عن أن يقع فيه شيء من الشرك، ولذلك عاب الله -جلّ وعلا- المشركين في المواضع التي ذكر فيها شركهم، وبيَّن سبب ما وقعوا فيه فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾(1) أي: ما عظّموه حق تعظيمه ولا أجلّوه حق إجلاله، ولو عظموه لما وقعوا في الشِّرك.

وقال -في سياق الآيات التي فيها بيان كفر قوم نوح، والآيات التي أقامها -جل وعلا- دالة عليه: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾(2).

﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ أي: تعظيمًا، ما لكم لا توقرونه توقيرًا يليق به، فالتعظيم من أعظم أسباب تحقيق التوحيد، فإذا نمَّى العبد في قلبه تعظيم الله -جل وعلا- حصل له هٰذا.

مما يفيده تعظيم الله -جل وعلا- امتثال أمره -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وترك نهيه، مما يفيده تعظيم الله -

---

(1) سورة: الأنعام، الآية (٩١).

(2) سورة: نوح، الآيات (١٣-١٤).

جل وعلا– تعظيم ما عظمه الله –جل وعلا– من الأماكن والأزمنة والأشخاص والأشياء، ويدلّ لذلك قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[1]. فجعل تعظيم ما عظمه الله– شعائر الله: أي هي الأمور التي عظمها –جل وعلا – جعل ذلك– دليلاً على صلاح القلب وتقواه.

مما يفيده تعظيم الله –جل وعلا– ويثمره أن قلب المُعَظِّم لله –جل وعلا– يترعج ويغضب إذا انتُهكت حدود الله –جل وعلا–، ولذلك قال ابن القيم رحمه الله: ومن علامات التعظيم الغضب لله إذا انتهكت محارمه.

فهٰذه فوائد تبين لك أن تعظيم الله –جل وعلا– هو مصدر خير كثير، هو مصدر التوحيد، هو مصدر الاستقامة على الشريعة، ومصدر تعظيم ما عظمه الله –جل وعلا–، هو مصدر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو سياج الإيمان وعصامُه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[2]. فإذا ضَعُف التّعظيم في القلب حصل الاختلال في هٰذه الأمور كلها، ومن أعظم ما يحصل به الإنسان تعظيم الله –جل وعلا– في قلبه مطالعة ما ذكره الله في كتابه من أسمائه وصفاته وأفعاله، فإن هٰذا من أعظم ما يبعث القلب على تعظيم الرّب، إذا قرأ قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3] بَعَثَ في قلبه تعظيم هٰذا الذي له الكبرياء في السمٰوات والأرض، إذا قرأ: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[4] بعث هٰذا في قلبه تعظيم الله –جل وعلا–؛ لأنه مُتَسَمٍّ بهٰذه الأسماء البالغة المنتهى في الحسن، إذا قرأ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾[5] بعث في قلبه تعظيم الله –جل وعلا–؛ لأنه الذي لا أعلى مما وصف به نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[6].

المهم أن من أعظم ما يورث القلب التعظيم مطالعة ما أخبر الله به عن نفسه في أسمائه وفي أوصافه وفي أفعاله.

أيضاً مما يبعث في قلب العبد التعظيم التفكر في آلاء الله –عز وجل–، في الآيات التي في السمٰوات

---

(1) سورة: الحج، الآية (٣٢).

(2) سورة: آل عمران، الآية (١١٠).

(3) سورة: الجاثية، الآية (٣٧).

(4) سورة: الأعراف، الآية (١٨٠).

(5) سورة: النحل، الآية (٦٠).

(6) سورة: الشورى، الآية (١١).

وفي الأرض، ويدلك لهـٰذا هدي النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : فإنه إذا استيقظ من الليل مسح وجهه ونظر إلى السماء، وكان يقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السمٰوات وَالأَرْضِ وَاخْتِلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيات لأُولِي الأَلْبَاب (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السمٰوات وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هـٰذا بَاطِلاً﴾[1] إلى آخر الآيات في سورة آل عمران. فالنظر في الآيات الآفاقية، النظر في الآيات الخلقية الكونية في الأنفس وفي الآفاق مما يُورث تعظيم الرّب المدبِّر لهـٰذه الأمور، الذي ما من حركة ولا سكون إلا بعلمه –جل وعلا–، هـٰذه أمور تُعين الإنسان على تعظيم الله –جل وعلا–، قراءة هدي النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ومنه ما في هـٰذا الباب الذي ذكره المؤلف –رحمه الله– من حديث جُبير بن مطعم دالٌّ على تعظيم الله، ويشجع على تعظيم الله؛ لأنه يقرأ كيف كان النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُجِل ربه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– إذا سمع ما فيه تنقيص لشأنه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

المهم أن الأسباب التي يحصل بها تعظيم القلب الرب –جل وعلا– كثيرة، فينبغي للمؤمن أن يطلب هـٰذه الأشياء وأن يهتم بها؛ لأنه مثل ما بينا قبل قليل إذا استقام في القلب تعظيم الله –جل وعلا– استقامت أحواله كلها، ونحن نعرف يا إخواني أن التعظيم أحد قطبي العبادة اللذين لا تقوم إلا بهما، قال ابن القيم رحمه الله:

وعبادة الرحمـٰن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

الذُّل لمن يكون؟ إنما يكون الذل للعظيم.

نقرأ: يقول رحمه الله: (عن جبير بن مطعم –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قال: جاء أعرابي إلى النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقال: يا رسول الله نهكت الأنفس) بيَّنا المعنى (وجاع العيال) أي من يعولهم هـٰذا الأعرابي، والمقصود عيالُ كل ذي عيال، يعني كل من له عيال يعولهم (وهلكت الأموال) والأموال يشمل من جملة ما يشمل بهيمة الأنعام، (فاستسق لنا ربك) أي: اطلب لنا السقيا من الله جل وعلا.

ثم قال: (فإنا نستشفع بالله عليك). أي: نطلب شفاعة الله –جل وعلا– إليك أو عندك كما تقدم، فإن عليك هنا بمعنى إليك أو عندك، وذكرنا الشواهد لهـٰذا.

(وبك على الله). أي: ونستشفع بك على الله، أي: نطلب وساطتك عند الله –عز وجل–. فقال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «سبحان الله، سبحان الله!». أي: أُنزه الله –جل وعلا– عن هـٰذا

[1] سورة: آل عمران، الآية (١٩٠– ١٩١).

القول. ومعلوم أن سبحان الله كلمة دائرة على التتريه، والمتره بها هو الله –جل وعلا– في هـٰذا السياق: سبحان الله، وهي لا تكون إلا لله، لا تُقال في حق غيره –جل وعلا– دائرة على التتريه، والتتريه إما أن يكون تتريهاً عن نقص، وإما أن يكون تتريهاً عن عيب، وإما أن يكون تتريهاً عن مماثلة ومشابهة، هـٰذا ما تدور عليه كلمة سبحان الله، فيتره العبد بها الله –جل وعلا– عن النقص في صفاته؛ لأن صفاته كاملة وله المثل الأعلى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾[1]. يُتره العبد ربه سبحانه وتعالى عن العيب، وهو ما وصفه به الجاهلون، ومنه هـٰذا الذي جرى من الأعرابي حيث قال: **(نستشفع بالله عليك)**. أي: نطلب وساطة الله عندك، يعني: نطلب من الله أن يتوسط لنا عندك. وهـٰذا لا يليق بالله –جل وعلا–؛ لأن الأمر كله في يد الله –جل وعلا–، فلا يُطلَب من الله أن يشفع عند أحد من الخلق، بل الشفاعة له تُطلب منه –جل وعلا– لا تُطلب منه إلى غيره –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، ولذلك سبح النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ربه حتى عُرف ذلك في وجهه، أي: عُرف التغير في وجهه من شدة ما وقع في نفسه من هـٰذا القول الذي فيه الإخلال بالأدب في حق الله، وفيه الجهل به –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– وبما يجب له من التعظيم.

قال –رحمه الله– في سياق حديث جبير: **(فمازال يسبح حتى عُرِفَ ذلك في وجوه أصحابه)**. أي: تغيرت وجوه أصحابه لما رأوا من المشقة التي لحقت بالنبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بسبب هـٰذا القول.

(ثم قال) القائل هو النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «**وَيحك**» وهـٰذه الكلمة الأصل فيها أنّها للترحّم، وهي مقابل ويلك، فكلمة (ويح) مقابل كلمة (ويل) تَرِد للترحّم وَترِد للتعجّب أيضاً، وتَرِد في بعض الأحيان بمعنى كلمة ويل، وهي هنا على هـٰذا الاستعمال، أي: إنها ليست للترحّم؛ لأنها لا تقال في مثل هـٰذا السّياق، بل هي للتنفير والتحذير، ولذلك قال له: أتدري ما الله؟ سؤال تعجّب من حال هـٰذا القائل، «**أتدري ما الله؟**» أي: أتعلم عمّن تتكلم؟ أتدري ما شأن الله؟ ثم بَيَّن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقال: «**إنّ شأن الله أعظم من ذلك**». أي: أمره –جل وعلا– وما يجب له أعظم مما تقول، فإنه لا يجوز لأحد أن يقول: نستشفع بالله عليك. «**إنه لا يُستَشفَع بالله على أحد**» وهـٰذا بيان الإنكار، أو بيان المنْكَر في قول الأعرابي. «**إنه لا يُستَشفَع بالله على أحد**» وقوله: «**أحد**» نكرة في سياق النفي، فتشمل كل أحد: تشمل الملائكة والجن والأنبياء؛ لأنّ شأن الله أعظم من ذلك، فإليه تُطلب الشفاعة –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، لا تطلب الشفاعة منه إلى غيره جل وعلا.

---

[1] سورة: النحل، الآية (٦٠).

يقول المؤلف: (وذكر الحديث). والحديث فيه أن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بيّن وصفًا من أوصاف الله –عز وجل– فقال: «إن عرشه على سماواته هكذا، وأشار بيده كالقبة». وهـٰذا فيه بيان عظيم ما له، فإذا كان هـٰذا شيئاً مما خلقه الله –عز وجل– ، فإذا كان شأنه كذلك فهو العظيم الذي لا تُطلب الشفاعة منه إلى غيره، بل تُطلب إليه الشفاعة جل وعلا.

وهـٰذا الحديث قد ضعّفه جماعة من العلماء؛ لوهنٍ في بعض رواته، ولاختلاف فيه أيضاً، إلا أن ابن القيم –رحمه الله– نافح عن هـٰذا الحديث منافحة شديدة انتهى بها إلى تصحيح الحديث، وقد حسّن الحديث الإمام الذهبي، فهو حديث لا بأس به.

[المتن]

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: نستشفع بالله عليك.

[الشرح]

وهـٰذا يفيد أنه ينبغي للإنسان أن يُنكِر القول الذي فيه نكارة، فيه تنقص لله –عز وجل– ، ولو كانت نية صاحبه سليمة، بل ينبغي له أن يبين ما يجب لله من التعظيم في القول، وإن كان القلب سليماً من النقص في حق الله –عز وجل–.

[المتن]

الثانية: تَغَيُّره تغيرًا عرف في وجوه أصحابه من هـٰذه الكلمة.

[الشرح]

وذلك لعظيم ما في قلب النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من تعظيم الرب –جل وعلا–، حيث بدا أثر هـٰذه الكلمة عليه في وجهه وفي قوله: في وجهه عرف الصحابة مشقة هـٰذه الكلمة عليه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ، وأما في قوله فهو تسبيحه ربه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–: «سبحان الله سبحان الله!» حتى تأثر الصحابة لما وقع من النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ، وما وقع له من المشقة والعنت بسبب هـٰذه الكلمة.

[المتن]

الثالثة: أنه لم يُنْكِر عليه قوله: نستشفع بك على الله.

[الشرح]

لأن هـٰذا واقع، وكانوا يستسقون بالنبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ، كما جاء ذلك في حديث أنس في قصة الأعرابي الذي دخل يوم الجمعة، وفي غيرها من الوقائع والشواهد الدالة على أنهم كانوا يطلبون من النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أن يَشفع إلى الله –عز وجل– لطلب السقيا وذلك بالاستسقاء، وقد قال عمر: «إنا كنا نستسقي بنبيك، وها نحن نستسقي» أو: ونحن «نستسقي بعم نبيك، قم يا عباس استسق». فهـٰذا يدل على أنهم كانوا يستسقون بالنبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ويطلبون شفاعته عند الله في نزول السقيا.

[المتن]

الرابعة: التنبيه على تفسير سبحان الله.

[الشرح]

وأنها تَرِد بتنزيه الله –عزّ وجل– عن النقص في صفاته أو العيب، فإن من ظن أنه تُطلب شفاعة الله إلى أحد من خلقه لم يَقْدُر الله حق قدره –جلّ وعلا–، فسبحان الله تطلق ويراد بها:

- تنزيهه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– عن النقص في صفاته.
- تنزيهه عن العيب وما وصفه به الجاهلون.
- والثالث: عن مماثلة أحد من خلقه له في شيء من صفاته –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

كما قال الله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(1).

[المتن]

الخامسة: أنَّ المسلمين يسألونه الاستسقاء.

[الشرح]

أي يسألونه طلب السُّقيا، وهـٰذا أدلته كثيرة كما تقدم.

(1) سورة: الشورى، الآية (١١).

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

[المتن]

باب ما جاء في حماية النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حِمَى التوحيد، وسَدِّه طرق الشرك

عن عبد الله بن الشِّخِّير –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «السيد الله –تَبَارَكَ وَتَعَالَى–». قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً. فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان». رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أنس –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أن ناساً قالوا: يا رسول الله! يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. فقال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينّكم الشيطان، أنا محمد، عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجل». رواه النسائي بسند جيد.

[الشرح]

هـٰذا الباب مناسبته لكتاب التوحيد ظاهرة: فإن المؤلف –رحمه الله– بعد أن قدّم ما تقدم من الأبواب الكثيرة التي فيها بيان حق الله –جل وعلا– في القول والعَقْد والفعل جاء إلى خاتمة الكتاب، وبين لنا –رحمه الله– في هـٰذا الباب ما كان عليه النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من حماية حِمَى التّوحيد –أي: حريم التوحيد– فإن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– كان كما سنتكلم في الباب ينافح عن التوحيد أشد المنافحة، وكان يصون حق الله –عز وجل– أعظم صيانة.

أما مناسبته للباب الذي قبله: فإن في الباب الذي قبله نوع حماية من النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لحق الله –عزّ وجل– وتوحيده، حيث أنكر على الأعرابي لما قال: «**نستشفع بالله عليك. فقال له: سبحان الله، سبحان الله! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك**».

وقول المؤلف –رحمه الله–: (**وسده طرق الشرك**) يبيّن لنا أن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– سد الطرق المُفضية إلى الشرك، فهو منع الشرك، ومنع كل وسيلة تُفْضي إليه، وهـٰذا لا إشكال أنه بَيِّنٌ من عدّة شواهد وفي عدة حوادث من سيرة النبي –صلى الله عليه وعلى آله وسلم–، لكن تقدّم لنا في كتاب التوحيد باب يَقْرُب من هـٰذا الباب، وهو قوله –رحمه الله– فيما ترجم: (**باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد**). فما الفرق بين البابين؟ الفرق بين البابين كما قال شيخنا عبد العزيز بن باز –رحمه الله–: أنه في الباب السابق ذكر الحماية الفعلية وفي هـٰذا ذكر الحماية القولية، فاكتمل هـٰذا

تمام صيانة التوحيد وتمام حمايته من أن يُنال وأن يُنقص، حيث إنّ النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– صانه قولاً وفعلاً.

قال –رحمه الله– في ما نقله عن عبد الله بن الشخير –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–: **(انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقلنا)** أي: هـٰذا الوفد **(أنت سيدنا)** يخاطبون النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ، فقال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «**السيد الله –تَبَارَكَ وَتَعَالَى–**». هم –رَضِيَ اللهُ عَنْهُم– لما قالوا للنبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أنت سيدنا أخبروا بالواقع، فإن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– سيد ولد آدم كما ثبت ذلك في الصحيح وغيره أن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**». فأخبر ثم بيّن أن هـٰذا الإخبار لا فخر فيه ولا علو ولا ارتفاع، إنما هو تبليغ وبيان للمرتبة التي منحه الله إيّاها وشرّفه بها، والسّيادة ثابتة له –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في سيادة الشّرف والرِّياسة، فإنه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أشرف الخلق عند الله يوم القيامة وهو أشرفهم في الدنيا، ويتبيّن هـٰذا في تراجع أئمة البشر وسادهم في ذلك الموقف العظيم، حيث ردّوا الشفاعة في فصل القضاءِ إلى نبينا محمد –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، لكنّ النبي –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– لما كان من هديه محبة التواضع، ومن هديه إبعاد كل ما يخشى أن يتطرق به الإنسان إلى ما هو سوء وشر، لا سيما في ما يتعلّق بجناب التّوحيد وحِماهُ– قال لهم –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «**السيد الله –تَبَارَكَ وَتَعَالَى–**». وجواب النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– هنا بيان لمن يستحقّ السّيادة على وجه الإطلاق، ولذلك لم يقل: سيدكم الله، إنما قال: السيد– الذي له كمال السّؤدد والسيادة والرياسة والعلو والشّرف على وجه الإطلاق– هو الله تعالى؛ لأنّه مالك الخلق وإليه مرجعهم، وهم عنه –أي عن أمره– صادرون، لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، حاجاتهم لا يقضيها إلا هو، أمورهم لا يدبرها إلا هو –جل وعلا–، فهو السيد على وجه الإطلاق.

وبهـٰذا فُسِّر اسم الله الصَّمَد، فإن ابن عباس –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قال في بيان معنى الصمد: السيد الذي كَمل في سؤدَده، أي: في علوه وملكه وشرفه وسيادته –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

فقول النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «**السيد الله**». هـٰذا فيه الخبر عن أن السيادة له وحده على وجه الإطلاق، وأما غيره: فاختلف العلماء –رحمهم الله– في إطلاق هـٰذا اللفظ على غير الله، والأقوال في هـٰذا أربعة:

القول الأول: أنّ هـٰذا اللفظ لا يجوز إلا لله؛ لأن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: «**السيد الله –**

تَبَارَكَ وَتَعَالَى–».

القول الثاني: أنه يجوز إطلاقه على الله وعلى غير الله، لكن الإطلاق على وجه الإطلاق– يعني: التلفّظ بهـٰذا الاسم على وجه الإطلاق– لا يكون إلا لله –عز وجل–، فيكون من الأسماء التي يصح أن يتسمّى بها الخلق وأن يُوصف بها الخلق على المعنى اللائق بهم، لكن لا يجوز أن يكون ذلك على وجه الإطلاق.

القول الثالث: أنّه لا يجوز إطلاقه على الله، وهـٰذا قول الإمام مالك. قالوا في تعليل هـٰذا: لأنّه لم يرد في الكتاب ولا في الأحاديث المشهورة وصف الله ولا تسميته بهـٰذا، وقالوا: لأنّ السيادة مكتسبة من المسُود، يعني: متى يكون السيّد سيِّدًا؟ إذا علا على قومه وشرف فيهم، فهم مشاركون له في استحقاق هـٰذا الوصف، إذ لو كان منفرداً لما كان سيّدًا، فقالوا: لا يليق أن يوصف الله –جل وعلا– بهـٰذا.

القول الرابع: التفريق بين ما كان معرفًا بالألف واللام فلا يجوز إلا لله، وما كان غير معرف بالألف واللام فإنه يجوز إطلاقه على الخلق، ومنه قول النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لأصحابه لما جاء سعد بن معاذ ليقضي في بني قريظة: «قوموا لسيدكم» فإنه لم يأت معرفًا، ويُشكل على هـٰذا أنهم هنا لم يقولوا: أنت السيد، إنما قالوا: أنت سيدنا.

الصحيح: أنه لفظ يجوز إطلاقه على الله –جل وعلا– وعلى غيره. أما إطلاقه على الله: فلأن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أخبر بذلك فقال: «السيد الله –تَبَارَكَ وَتَعَالَى–». وثبوته بالسّند الصحيح يكفي في إثبات ذلك، ولو لم يرد في القرآن، ولو لم يرد في الكتب المشهورة والأحاديث الصحيحة المشهورة؛ لأن العمدة على الثبوت، فإذا ثبت عن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– من أي وجه كان فإنه يثبت هـٰذا الوصف لله –سبحانه وتعالى–، لكن التلفظ بهـٰذا على وجه الإطلاق الذي يصبح كالعلم الذي لا يعرف إلا به فهـٰذا لا يجوز إلا في حق الله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، كغيره من الأسماء: كالسميع، والبصير، والرؤوف، والرحيم، فهـٰذه أوصاف وأسماء يجوز أن يتصف بها الإنسان ويتسمى بها، لكنه لا يُسَمى بها ولا يوصف بها على وجه الإطلاق.

ثم هل السيد من أسماء الله –عز وجل– ؟

بعض العلماء قال: إنه من أسماء الله، وقال آخرون: إنه ليس من أسماء الله، إنما هو وصف. ولعل الذين قالوا: إنه ليس من أسماء الله إنما هو وصف له، بناء على أن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لم يبتدئ الإخبار بذلك، إنما جاء به على وجه الجواب لمن قالوا له: أنت سيدنا، والمسألة تحتاج إلى تحرير، ولكن

أكثر العلماء على أنه ليس من الأسماء.

ما وجه إنكار النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ؟

قلنا: وجه إنكاره: خشيته أن يتطرق إلى ما هو أشد منه كما سيتبين من آخر الحديث، وأيضاً كراهية مواجهة الإنسان بهـٰذا الاسم، حتى ولو كان سيدًا شريفًا فإنه لا يواجه به، فلا يقال: يا سيدي أو: يا سيدنا في مخاطبة الشخص، ومن قيل له ذلك فينبغي له أن ينبه إلى أن الأولى ترك هـٰذا، فليس فيه النهي عن إطلاق هـٰذا اللفظ على وجه العموم، إنما فيه النهي عن إطلاق هـٰذا اللفظ فيما إذا كان مخاطَباً فيه الإنسان نفسه؛ لأنه يخشى أن يتطرق إليه شيء من العلو والارتفاع.

(قلنا: وأفضلنا فضلاً). بيَّن عبد الله –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– ما قالوه في النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– **(وأفضلنا فضلاً)**. أي: أفضلنا خيرًا وتقدمًا. قال: **(وأعظمنا طولاً)**. أي: أعظمنا غنًى وجاهًا. فقال: **«قولوا بقولكم أو بعض قولكم»** أو: هنا للشك وليست للتنويع، وهي شك من الرواة؛ لأن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– إما أن يكون قال لهم: قولوا بقولكم، أو: قولوا ببعض قولكم، ويبعد أن يقول لهم: قولوا بقولكم أو بعض قولكم. وبعض العلماء يقول: إن أو هنا ليست للشك إنما هي للتنويع، والأقرب أنها للشك من بعض الرواة.

«ولا يَستَجرِيَنَّكُم الشيطان» أي لا يجعلكم جَرِيًّا له –بدون همز–، لا يجعلكم جَرِيًّا له، أي: لا يجعلكم وكلاء له، فالجري: هو الوكيل، وسمي الوكيل (جَرِيًّا) –بدون همز– لأن الوكيل يجري مجرى من وَكَّلَهُ، فقوله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: **«لا يستجرينكم الشيطان»** أي: لا يجعلكم وكلاء له في الغلو والوقوع في ما لا يُحمد، وهـٰذا بيان للعلة التي جاء من أجلها النهي عن الإطناب في المدح والثناء، وهي أنهما وسيلة للعلو هـٰذا في الممدوح، ووسيلة للوقوع في الغلو في الصالحين مما قد يكون سببًا لعبادتهم من دون الله، فهي سبب للعلوّ وسبب للغلو، سبب للعلو في الشخص نفسه، وسبب للغلو في ما يتعلق بغيره.

(رواه أبو داود بسند جيد) وهو كما قال الشيخ رحمه الله.

(وعن أنسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– أن ناسًا قالوا: يا رسول الله! يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا).

(يا خيرنا) لا إشكال في أنه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– خير الصحابة، بل هو خير الناس صلى الله عليه وعلى آله وسلم، بل هو خير الخلق على الصحيح، ويدل لهـٰذا أن عمر دخل عليه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ- وهو في بيته متكئ على الحصير قد أثر الحصير في جنبه فقال: «يا رسول الله أنت رسول الله وصفوته من الخلق». والصفوة إنما يكون في الخير المصطفى، وأقره النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على هٰذه الكلمة، فدل ذلك على أنه خير الخلق. وبعض الناس يتوقف في إطلاق مثل هٰذا على النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ويقول: ما الدليل على أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خير الخلق؟ نقول: الدليل هٰذا الحديث وهو إقراره لعمر في ما قال.

وأما قول: (وابن خيرنا) فهو ابن خيرهم من حيث النسب، ولذلك جاء في بعض الروايات: «يا خير قريش». فالخيرية هنا في الأب ليست خيرية الدين والتقوى والإيمان، إنما خيرية النسب، فهو خيار من خيار -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

(وسيدنا وابن سيدنا) وهٰذا تقدّم الكلام عليه. فقال: «يا أيها الناس قولوا بقولكم» وهنا فيه الجزم وعدم الشك، حيث لم يقل: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، بل قال: «قولوا بقولكم» يعني: بالذي تقولون، وذلك لأنه حق كما تبين، ولو كان باطلاً لما أقرَّهم عليه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

ثم قال: «ولا يستهوينكم الشيطان» أي: لا يُوقعنكم في الهُوِيِّ والسقوط في ما لا تُحمد عقباه.

«أنا محمد عبد الله ورسوله»: وهٰذا تكرّر منه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في مواضع عديدة، يؤكد ويبين أن خير ما يوصف به أنه عبد الله ورسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. «أنا محمد عبد الله» والعبودية هنا: العبودية الخاصة، بل أعلى درجات العبودية الخاصة، ما الفرق بين العبودية الخاصة والعامة؟ يعني: عبودية القهر والقَدَر، هٰذا الفرق بينهما، عبودية القهر والقَدَر، العبودية الخاصة هي عبودية الاختيار، وأما العبودية العامة فهي عبودية كل شيء المؤمن والكافر والجماد والحي، هٰذه هي العبودية العامة، وهي عبودية القهر والقَدَر لا يخرج عنها أحد كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾[1].

«ورسوله» أي: هو من اصطفاه رسولاً، فالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عبد الله وهو رسوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

«ما أحب أن ترفعوني فوق مترلتي» وهٰذا فيه أن الغلو والإطناب في المدح سبب للارتفاع بالرجل فوق مترلته. «ما أحب أن ترفعوني فوق مترلتي التي أنزلني الله -عز وجل-» ما هي المترلة التي أنزلها الله

---

[1] سورة: مريم، الآية (٩٣).

–عز وجل– رسوله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–؟ أنه عبد الله ورسوله، ولذلك قال في حديث عمر في الصحيح: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله». اللهم صل وسلم على رسول الله.

(رواه النسائي بسند جيد) وهو كما قال.

[المتن]

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

[الشرح]

هـٰذا واضح في الحديثين.

[المتن]

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا.

[الشرح]

ماذا ينبغي أن يقول؟ (السيد الله). والعجب كل العجب من بعض إخواننا الذين يقدمون للمشايخ والعلماء في محاضراتهم ودروسهم، يطنبون في المدح حتى يقصموا ظهر الرجل، وقد سمعت أحدهم يقدم لآخر يقول: أنت الذي لو عرفت الأشجار قدرك لمدت أغصانها تصافحك. وهـٰذا شريط يوزع ويباع في الناس، وهـٰذا قد لا يستجيز الإنسان أن يقوله في الصحابة –رَضِيَ اللهُ عَنْهُم–، فضلاً عن أمثالنا وأمثال أهل هـٰذا العصر، فينبغي الترشيد في المدح؛ لأن الغلو في المدح يُورِد ويسبب وينتج الغلو في القدح؛ لأنّ كل غلو لا بد أن يقابله غلو من الطرف الآخر، والقصد والاعتدال هو أن يسلك الإنسان السبيل القويم، فيعطي الناس حقهم من الإجلال والتقدير دون زيادة. هـٰذا رسول الله–صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مع أنهم وصفوه بوصف مطابق لا يستحقه غيره– قال: «السيد الله –تَبَارَكَ وَتَعَالَى–». وتجد الواحد منهم إذا مُدح سكت وقد يرضى و لم يعلق بشيء ، ما هو صحيح يا أخي، المفروض أن يفعل كما فعل شيخنا –رحمه الله– لما قال له أحد الناس: أنت غني عن التعريف. أخذ الميكرفون وقال: هـٰذا لا يصلح إلا لله –عز وجل–. ينبغي للإنسان أن يكون حازمًا في مثل هـٰذه الأمور؛ لأن ترك الناس مع أهوائهم –لا سيما أهل الأدب والذين يتوسعون في العبارات– يوقع في مهالك وإشكالات كبيرة، ويظن أن هـٰذا من إجلال الشيخ وتقديره ومن إعطائه حقه، ونحن ندعو للتوحيد ونقول: التوحيد أهم ما

يدعى إليه، ثم نخالفه على رؤوس الخلائق وفي منابر المساجد، وهـٰذا غلط، يعني: ينبغي أن نتكاتف ونتعاون في التنبيه عليه سواء من جهة المُقَدِّمين أو من جهة الممدوحين، الممدوح إذا رأيته قد سكت يا أخي قل له: لا يجوز لك هـٰذا، النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- -مع أنه أحق من يُثنى عليه ويُمدح- يرد بهـٰذا الرد، ويبين للناس أنه ما ينبغي مثل هـٰذا، لا يتجاوز الإنسان الوصف المطابق المُقَارِب لحال الشخص، أما أن يغلو ويتجاوز فهـٰذا سبب لوقوع شر كبير.

[المتن]

الثالثة: قوله: «لا يستجرينكم الشيطان»، مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

[الشرح]

وكل هـٰذا يشهد لما ذكره المؤلف –رحمه الله– من أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَمَى حِمَى التوحيد، وسد الطرق الموصلة إلى الشرك بكل طريق وبكل وسيلة، سواء كان ذلك من الأفعال أو من الأقوال.

بسم الله الرحمـــٰن الرحيم

[المتن]

باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

عن ابن مسعود –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقال: يا محمد! إنَّا نجد أن الله يجعل السمٰوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله. وفي رواية للبخاري: يجعل السمٰوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع. أخرجاه.

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السمٰوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وروي عن ابن عباس، قال: «ما السمٰوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم».

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «ما السمٰوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرس». قال: وقال أبو ذر –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–: سمعت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض».

وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماءين خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم». أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله، ورواه بنحوه عن المسعودي عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله. قاله

([1]) سورة: الزمر، الآية (٦٧).

الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى، قال: وله طرق.

وعن العباس بن عبد المطلب –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قال: قال رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟». قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكِثَف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم». أخرجه أبو داود وغيره.

[الشرح]

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

قال المؤلف –رحمه الله– في آخر كتاب التوحيد: (باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(1)) هـٰذا الباب ختم به المؤلف –رحمه الله– كتاب التوحيد، وقد أحسن غاية الإحسان حيث ختم الأبواب المتعلقة بتحقيق التوحيد بهـٰذا الباب الذي يورث قلب العبد تعظيم الرب –جل وعلا–؛ لأن فيه من أوصاف الله –عز وجل– وعظيم قدرته ما تَجِلُ له القلوب، وما تُعَظِّم به القلوب ربها، ولذلك كان الله –جل وعلا– في ذكره للمشركين في عدة مواضع يُذكرهم ما هم عليه من خطأ، ويبين لهم أن ما وقعوا فيه بسبب ضعف تعظيمهم، ومن ذلك هـٰذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. فإنه ذكرها –جل وعلا– في مواضع نسب إليه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– ما لا يليق به، إما من الشرك أو من أن الكتاب منزل من غيره، فقال –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾. قولهم وعملهم وعقدهم إنما هو لسبب ضعف تعظيمهم، فقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ أي ما عظموه جل وعلا ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي حق تعظيمه، ولو أنهم عظّموه حق تعظيمه لما وقعوا في ما وقعوا فيه من الشرك ونسبة الباطل إليه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

ثم بَيَّن شيئاً من عظيم قدرة الله الدال على عظيم قدره جل وعلا: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً﴾ أي كُلُّها، وليست الأرض التي نحن عليها فقط، بل جميع الأرضين السبع ﴿قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي في قبضته –جل وعلا–، وذلك على وجه الحقيقة، لا على وجه كمال الإحاطة والتصرف، كما يدل لذلك ما ذكره المؤلف رحمه الله من الأحاديث التي فيها أنَّ الله يطوي

(1) سورة: الزمر، الآية (٦٧).

السمٰوات والأرض بيده، فأخبر الله –جل وعلا– في هـذه الآية بأنه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– يطوي الأرض في يمينه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– كما قال: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ السمٰوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾. فالسمٰوات تُطوى في يمين الرب –جل وعلا– كما يطوي السجل الكُتُب: أي المكتوب.

قال رحمه الله: (عن ابن مسعود –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قال: جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–).

(حبر) أي: عالم، وسمي الحبر حبرًا قيل: من الحِبر؛ لأنه يستعمل الحِبر في الكتابة، وقيل: إنه من البحر، مقلوب.

قال في حديث ابن مسعود: (قال ابن مسعود: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقال: يا محمد! إنا نجد أن الله يجعل السمٰوات على إصبع). السمٰوات العظيمة المتعددة كلها على إصبع واحد من أصابع الرحمـٰن –جل وعلا–، وهـذا يدل على عظيم قـدرة الـرب سـبحانه وبحمده. ولا يرد في قلبك التكييف، فاصرفه عن قلبك حتى تطمئن وتستفيد من هـذا الحديث، فـإن السمٰوات العظام الشِّداد على إصبع واحد من أصابع الرحمـٰن –جل وعلا– (والأرضين على إصبع). والمقصود بالأرضين: السبع على إصبع (والشجر على إصبع) وهـذا مما في الأرض (والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع). أي: بقية خلق الله –جل وعلا– على إصبع (فيقول: أنا الملك). هـذا من كلام من؟ من كلام الحبر. وجاء في بعض الروايات أن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حدث أصحابه بهـذا قبل مجيء الحبر، فجاء الحبر فقال: يا أبا القاسم ألا أخبرك بما يكون يوم القيامـة؟ فأخبره بهـذا الخبر، فصَدَّق ما أخبر به النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أصحابه. (فضحك النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– حتى بدت نواجذه). أي: أنيابه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ضحك تصديقًا لقول الحبر، (ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾). ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قراءة النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في هـذا الموضع لهـذه الآية هو تفسير لها وبيان لمعناهـا، وأن قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هو معنى ما ذكر في هـذا الحديث من جعلـه الأرضين على إصبع.

(وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن) جل وعلا وهو على كل شيء قـدير (فيقول: أنا الملك، أنا الله). وإنما يقول: أنا الملك –مع أنّه الملك في الدنيا والآخرة– لظهـور ملكـه

وتفرده به، وهــذا هو السر في قول الله -عز وجل- في سورة الفاتحة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[1]. أي يوم الجزاء والحساب، فإنه لا مالك في ذلك اليوم إلا هو -جلّ وعلا-، وكل صاحب ملك يزول مُلكه، ولا يكون في ذلك اليوم إلا مملوكاً لله جلّ وعلا.

(أنا الله): وهــذا فيه الإخبار عن أنه الله الذي لا إله غيره -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

(وفي رواية البخاري: يجعل السمٰوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع). وهــذا يفيد أن أصابع الرب -جل وعلا- متعددة، وإياك والتكييف، وإياك والتحريف، فإنهما سوءتان وقع فيهما جماعة ممن ضاقت عقولهم وقلوبهم عن إدراك ما أخبر الله به عن نفسه، وعن تصديق خبر الله ورسوله.

فالواجب في هــذه النصوص ما جرى عليه هدي السلف الصالح من الإيمان بها والتصديق، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

قال: **(ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السمٰوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»)**. وهــذا طي حقيقي كما قال الله جــل وعــلا: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[2]. السجل: قيل: الكاتب، يعني: كما يطوي الكاتب كتابه. وقيل: السجل: هو المكتوب فيه، فكما أن السجل الذي هو محل الكتابة يحوي المكتوب ويطويه فكذلك طي الله -جل وعلا- للسمٰوات والأرض: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

«**يطوي الله** -جل وعلا- **السمٰوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيمينه**». وهو -جل وعلا- على كل شيء قدير «**ثم يقول: أنا الملك**». وذكرنا السر في أنه ذكر هــذا الاسم دون غيره «**أنا الملك**» ما السر في ذكر هــذا الاسم دون غيره من الأسماء؟ انفراده -جل وعلا- بالملك، وأنه لا مالك غيره -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، «**أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**» ولماذا خص هذين بالسؤال؟ لأنهم أصحاب العلو، ولأنهم الذين ينازعون الله وصفه الذي اختص به، فالجبار لا يليق إلا به -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فهو الجبار، والتكبر لا يليق إلا به جل وعلا: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[3]، فكل من نازع الله شيئاً من أوصافه كان يوم القيامة حقيراً ذليلاً مسؤولاً عنه بهــذا السؤال: «**أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**» وكل

---

(1) سورة: الفاتحة، الآية (٤).

(2) سورة: الأنبياء، الآية (١٠٤).

(3) سورة: الجاثية، الآية (٣٧).

من عَبَد غير الله فهو متكبر، وكل من عادى أولياء الله وكذب رسله فهو جبار وكذلك متكبر.

«**ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله**» هكذا في رواية مسلم، وفي رواية غيره قال: «**ثم يأخذهن بيده الأخرى**» دون ذكر الشمال، وقد قال النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في وصف يدي الله –عز وجل–: «**وكلتا يديه يمين**». هـٰذا في الخير والبركة.

قال: ثم يقول: «**أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**». يَرُدُّ القول ثانيًا لبيان انفراده وأنه لا مجيب له؛ لأنه في ذلك اليوم لا تسمع همساً، فلا أحد يتكلم: ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً**﴾[1] فتعنو الوجوه: تذل له –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، والذل يقتضي عدم الكلام، فتخشع له الأصوات ولا تسمع يومئذ إلا همساً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

(**وروي عن ابن عباس قال: «ما السمٰوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمـٰن إلا كخردلة في يد أحدكم»**.) وهـٰذا فيه بيان عظيم قدر الله –جل وعلا– وأنه الكبير المتعال سبحانه وبحمده، هـٰذا الخلق العظيم من خلق الله –جل وعلا– هو في يد الله –جل وعلا– في كف الرحمـٰن كالخردلة في يد أحدنا، والخردلة هي من أدق ما يكون، قد لا تدركها العين ولا تراها. وكل هـٰذه الآثار مقصودها والمراد منها بعث التعظيم في القلوب، وأن تعظيم الله –جل وعلا– سبب لأي شيء؟ سبب لتحقيق التوحيد.

(**وقال ابن جرير: حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : ما السمٰوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس**).

(**دراهم سبعة**) إشارة إلى عدد السمٰوات وألقيت في تُرس، والترس يستوعب الدراهم ولا تتبين فيه تبيناً واضحًا. والحديث الأول أبلغ في بيان دقة السمٰوات والأرض في كف الرحمـٰن –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–، وحديث ابن عباس أثبت مما ذكره عن ابن زيد فيما رواه عن أبيه.

قال: (**وقال أبو ذر –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– : سمعت رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يقول: «ما الكرسي في العرش»**.) وكل هـٰذا خلق الله، والكرسي أعظم من السمٰوات، فإذا كانت السمٰوات في الكرسي على هـٰذه الحال، والكرسي في العرش على ما يأتي في حديث أبي ذر: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**» تَبيَّن لك عظيم قدر الرب –جل وعلا–، إذا

---

(1) سورة: طه، الآية (١١١).

كان هـٰذا شأن خلقه فكيف هو –سبحانه وبحمده–؟ وهـٰذا من قياس الأولى، فإن الله –جل وعلا– وصف نفسه بعظيم الصفات الدالة على عظيم قدره.

فالسمٰوات على عِظَمِها في الكرسي: كالدراهم في الترس، والكرسي في العرش على عظمه– لقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[1] في العرش– كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة – صحراء من الأرض– كيف تتبين وكيف يوقف عليها؟ وشأن الرّب –جل وعلا– أعظم من ذلك، لا إله إلا هو الكبير المتعال.

فإذا أدرك العبد هـٰذه الأمور بعث ذلك في قلبه تعظيم الرب –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– وإجلاله سبحانه حق إجلاله.

ما الفرق بين الكرسي والعرش؟

الكرسي: قال ابن عباس: موضع القدمين. وأما العرش: فهو الخلق العظيم الذي خلقه الله جل وعلا واختصه بالاستواء، وذكر ذلك في مواضع عديدة من كتابه عدها بعض العلماء بسبعة مواضع: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[2].

وقال بعض العلماء في الكرسي: إنه خلق من خلق الله عظيم، ولا نقول: إنه موضع القدمين ولا غير ذلك؛ لأن الأثر الوارد عن ابن عباس في ذلك ضعيف.

قال: **(وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماءين خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم».)** سبحانه وبحمده.

وهـٰذا بيان لعظيم خلق السمٰوات والأرض، وإذا كان هـٰذا شأن هـٰذا الخلق كما وصف قال: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة**» فكيف بالربّ جل وعلا؟ وكيف بهـٰذه الأشياء في الكرسي؟ وكيف بها في العرش؟

قال رحمه الله: **(أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله)** يعني: عن عبدالله بن مسعود –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– **(ورواه بنحوه عن مسعود عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله، قال الحافظ الذهبي رحمه الله: وله طرق)** أي: يقوي بعضها بعضاً ويثبت بهـٰذا، فإذا ثبت هـٰذا فإنه

---

(1) سورة: البقرة، الآية (٢٥٥).

(2) سورة: طه، الآية (٥).

مما لا يقال بالرأي، بل لا بد أن يكون مما تلقاه عن النبي –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

(وعن العباس بن عبد المطلب –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قال: قال رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة عام، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، وكِثَف –وفي بعض الروايات: **«غلظ»** –**كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم». أخرجه أبو داود وغيره)**. وهـٰذا من الطرق التي أشار إليها الذهبي – رحمه الله– في قوله: وله طرق. فقد جاء هـٰذا من طرق عديدة، وهو ثابت من حيث الجملة؛ لتعدد الطرق التي ورد بها هـٰذا الخبر.

إلا أنَّه قد ورد اختلاف في إحصاء ما بين السماء والأرض، ففي هـٰذه الآثار التي ذكرها المؤلف في حديث العباس وفي ما ذكره ابن مسعود أن قدر ما بين كل سماء وأخرى كم؟ خمسمائة عام، وفي بعض الروايات أنه واحد وسبعون واثنان وسبعون عاماً، فجمع العلماء بين الاختلاف في التقدير بأنه اختلاف باعتبار السير، فهـٰذا اختلاف باعتبار قَدْر السير، فالسير البطيء الهين الذي جاء الخبر عنه في أثر ابن مسعود وفي أثر ابن عباس، وأما الأثر الذي فيه أنه إحدى وسبعون سنة واثنتان وسبعون سنة فهـٰذا في السير السريع .

وقال بعض العلماء: إن ذكر السبعين إنما هو للتكثير، لكن يُشْكِل على هـٰذا أنه ذكر فوق السبعين عدداً وهو الواحد والاثنان، وهـٰذا لا يكون للتكثير غالبًا.

وعلى كل حال المقصود من هـٰذه الآثار هو بيان عظيم قدر الرب –جل وعلا–، وإذا عَظَّم العبد قدر ربه –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– فإنه لم يجعل في قلبه لأحد تعبدًا ورقّاً سوى لله –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى–.

[المتن]

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

الثانية: أن هـٰذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود في زَمَنِه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لم ينكروها ولم يتأولوها.

[الشرح]

خلافًا للمعطلة في هـٰذه الأمة، فإنهم تأولوا هـٰذا وأنكروه وقالوا: إن له معنًى مخالفًا لما أخبر به النبي

-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

[المتن]

الثالثة: أن الحبر لما ذكرها للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

[الشرح]

في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

[المتن]

الرابعة: وقوع الضَّحِك من رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما ذكر الحبر هـٰذا العلم العظيم.

[الشرح]

تعجبًا منه وتصديقًا له.

[المتن]

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السمٰوات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشِّمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

[الشرح]

أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟

[المتن]

الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدكم».

[الشرح]

الله أكبر!

[المتن]

التاسعة: عِظَم الكرسي بالنسبة إلى السمٰوات.

[الشرح]

أن السمٰوات كسبعة دراهم في ترس بالنسبة للكرسي.

[المتن]

العاشرة: عِظَم العرش بالنسبة إلى الكرسي.

[الشرح]

واضح : (كحلقة حديد ملقاة في فلاة).

[المتن]

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

[الشرح]

كل هــٰذا جاء في الآثار التي ذكرها المؤلف.

[المتن]

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

[الشرح]

وهــٰذا مما أجمع عليه علماء الأمة ودل عليه الكتاب والسنة.

[المتن]

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشرة: كِثَف كل سماء خمسمائة عام.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السمٰوات بين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة سنة، والله –سبحانه وتعالى– أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

[الشرح]

آمين، اللهم صل وسلم على رسول الله.

نسأل الله –عز وجل– أن ينفعنا بما سمعنا، وأن يُسمِعنا ما ينفعنا، وأن يجزي الشيخ محمد بن عبد

الوهاب – رحمه الله– خير الجزاء، وأن يغفر له وأن يرحمه، وأن يعلي درجته في عليين، وأن يبعث في الأمة من أمثاله مجدّدين.